جريمتا الحقيبتين .. ومن الذى ارتكبهما ؟

محاكمة « توني مانسيني »

. . . انتهى المحامى « المستر بيركت » فى دفاعه الى طلب سماع شهادة المتهم . . وقد كان هذا التصرف محل دهشة ونظر . . لأنه ما من أحد يضمن ، ما اذا كانت الشهادة ستؤدي الى الخير أو الى الشر . . . فقد تفلت كلمة من المتهم فتعجل بتسليم رأسه الى المشنقة !

ومهما يكن من أمر فقد ارتقى « مانسيني » منصة الشهود فى خطى ثابتة متئدة . . وأدى شهادته فى روعة .

. . ومن الجائز أن يكون الحكم الذي صدر بعد ذلك قد جاء نتيجة لكفاءة محاميه « بيركت » ولمهارته . فهذا الرجل هو الذي تولى محاكمة كبار رجال النازي في « نورمبرج » عقب الحرب الأخيرة . . وهو فخر انجلترا القضائي فى الوقت الحاضر . كما كان فخرها في المحاماه من قبل .

obeikandl.com

اعتاد الرأى العام فى مختلف البلدان أن يبدى اهتماماً بالغاً بحوادث القتل التى يعمد مرتكبوها إلى التمثيل بجثث الضحايا فيها تمثيلا شائناً أو بشعا .. وغالباً ما يزداد هذا الاهتمام ويتضاعف إذا ما اكتشف أن هذه الجثث الممثل بها على هذه الصور قد أودعت « زكائب » أو « حقائب » وألقيت — بما تحمل من أسرار مفجعة وألغاز معمية — فى مكان خاص أو عام .. وبطريقة قد تخطر أو قد لا تخطر على البال .

وقد نكبت انجلترا فى خلال شهر يونيو من عام ١٩٣٤ بحادثين شهيرين من هذا النوع الشائن البشع .. وقع أولهما فى اليوم السادس من الشهر المذكور — وهو يوم سباق الدربى الكبير المعروف — إذ أودع مجهول حقيبة كبيرة من حقائب الأسفار ، المخزن المعد لهذه الحقائب بمحطة « برايتون » على الشاطىء الجنوبى لانجلترا .. وهى حقيبة تبين بعد أيام من إيداعها دون السؤال عنها بعد ذلك أنها تحوى جثة امرأة فصل الرأس والذراعان والرجلان منها !! ولما تولى البوليس بحث الأمر وركز جهوده فى معرفة شخصية المرأة القتيل أولا ، تبين له — مع الأسف — أن هناك أكثر من عشرين امرأة وفتاة قد اختفين اختفاء تاما من هذه المدينة الساحلية الجميلة وحدها فى خلال عام سابق على الحادث .. فازداد الأمر لذلك تعقيداً وأهمية وخطورة .. ولم يلبث الرأى العام أن ضج وهاج وماج مطالباً أولى الأمر باكتشاف

معميات هذا الحادث المفزع . وعلى الأخص بعد أن اكتشف البوليس رأس القتيلة المسكينة وذراعيها ورجليها فى حقيبة أخرى أودعت مخزن حفظ حقائب الأسفار بمحطة « كنجز كروس » بلندن !

وكان من بين النساء اللاتى اكتشف البوليس أمر اختفائهن من « برايتون » راقصة محترفة معروفة فى الواحدة والأربعين من عمرها تدعى « فيوليت كاى » اشتهرت بمرافقتها دائماً لرجل ينحدر من أصل إيطالى هو « تونى مانسينى » اتخذ له بين الناس اسم « جاك نوتاير » واعتاد أن يقيم مع رفيقته هذه فى شقة بحى « بارك كرسنت » . . ولذلك كان من الطبيعى أن تتجه إليه الريب والشكوك فى الحال . . ولكنه ما لبث أن تمكن من الإدلاء إلى رجال البوليس فى سهولة ويسر بأقوال مؤيدة بأدلة جعلته براء من دم صديقته الراقصة ، أو حتى من العلم بأمر اختفائها المفاجىء ، فأطلق سراحه فوراً . . بعد أن قبض عليه بساعات ! !

وبينما كان رجال البوليس يكتسحون منازل « برايتون » واحداً بعد الآخر فى حملة تفتيشية جبارة سعياً وراء اكتشاف أسرار الحادث الغامض بما له من ذيول وفروع . . إذ بهم يصلون إلى منزل بشارع « كمب » شكا أحد العمال الذين يقومون فيه ببعض الإصلاحات من انبعاث رائحة نتنة كريهة من إحدى الغرف المغلقة فيه . . وما أن اقتحم

هؤلاء الرجال المكان حتى عثروا على حقيبة كبيرة مغلقة تبين أنها تضم أشلاء « فيوليت كاى » المسكينة . .

وعلى أثر اكتشاف هذا الحادث الثانى عاد الرأى العام إلى الهياج وإلى الثورة من جديد . . وأخذ يصب جام سخطه وغضبه على رجال البوليس الذين كانوا قد أطلقوا سراح « تونى مانسينى » صديق القتيلة والذى كان ولابد — فى نظر الناس — على علم تام بأمر اختفاء صديقته ثم قتلها والتمثيل بجثتها . . واشتدت حساسية الجماهير وترقبهم لجهود البوليس فى سبيل العثور على الرجل المشكوك فى أمره . . وانتظارهم لما سيحدث بعد القبض عليه . .

ولحسن الحظ . . تمكن أحد رجال البوليس من القبض عليه فوراً فى « بلاك هيث » بعد أن كان قد غادر « برايتون » وسرعان ما أعيد إلى هذه المدينة حيث مثل سريعاً أمام المحققين . . ولم يحل شهر ديسمبر من نفس العام الذى وقع فيه الحادث حتى وجد « مانسينى » نفسه أمام قضاة محكمة الجنايات فى « لوس » متهماً بقتل صديقته الراقصة ! !

ومنذ البداية كان واضحاً أن الظروف قد توافقت جميعها لإلباس المتهم ثوب الجريمة المنسوبة إليه إلباساً محكماً . . فقد كان أولا من أرباب السوابق المعروفين لرجال البوليس من مدة . . كما كان من المعروف أيضاً عنه مصادقة الراقصات والنسوة الساقطات . . وكانت آخر من صادقهن

« فيوليت كاى » . . بل أنها كانت آخر من عرف أنه عاش على كسبهن وكدهن !

ولم يكن هذا هو كل ما فى الأمر . . بل إن تحريات البوليس دلت على أنه بعد ما غادر الشقة التى كان يقطن بها مع الراقصة المفقودة لآخر مرة معها . . تركها بعد قليل واشترى حقيبة كبيرة الحجم . . وذهب بها إلى حيث الغرفة الجديدة التى استأجرها بشارع « كمب » . . ولا يعرف بالضبط ما إذا كانت الجثة بداخل الحقيبة أو لم تكن فيها عند ما دخل بها لأول مرة هذه الحجرة . . على أن الثابت أنه ظل يرقد بمفرده فى الحجرة المشار إليها أسابيع عديدة . . حتى غادر « برايتون » أثر الاشتباه فى أمره !

وأخيراً . . فقد أدلى إلى كثير من الشهود . . وإلى رجال البوليس بأقوال متناقضة متضاربة . . مما جعله فى مركز سيىء لا يحسد عليه عندما مثل فى قفص الاتهام أمام رجال القضاء . .

ولهذا كله فقد كانت مهمة المستر « ج . د . كاسل » الذى قاد حملة الاتهام ميسرة سهلة . . كما كان تصويره للحادث المنسوب وقوعه إلى المتهم قاتماً مثيراً يملأ النفس حقداً ورغبة فى القصاص . .

وقد قابل المتهم أقوال ممثلى الاتهام فى وجوم . . بينما جلس محاميه المستر « بيركت » — وهو الآن السير « نورمان بيركت » الذى رأس محاكمة

مجرمى الحرب فى « نورمبرج » عقب الحرب الأخيرة — فى هدوء ينصت إلى الأدلة المتتابعة التى كان يؤيد بها المستر « كاسل » اتهامه . .

أما رئاسة الجلسة « المحاكمة » . . فقد أسندت إلى القاضى « براستون » الذى قابل سرد هذه الأدلة كلها فى برود . . إلى أن وصل المستر « كاسل » إلى الإشارة إلى أن المتهم تقابل ذات مساء مع بعض أصدقائه بإحدى المحلات العامة . . فسأله واحد منهم عن صديقته « ڤيوليت كاى » فأجابه بأنه قد تشاجر معها فى التو وأنه أعطاها درساً لن تنساه مدى حياتها ! ! وأردف ذلك بأن قال لهذا الصديق أنه يعتقد بأنه لن يرى صديقته مرة أخرى ! .

ولقد قدم هذا الصديق لتأدية الشهادة ضد صديقه « مانسينى » . . فقرر بأنه قال له : — ما الفائدة من ضرب امرأة بقبضة يدك فقط ! ؟ إن ذلك لن يعود عليك سوى بالرضوض التى تصيب يدك . . فلابد إذن من أن تطرق المرأة بالمطرقة . . كما فعلت أنا فتقضى عليها ! .

وعقب الاتهام على ذلك بأن « مانسينى » عند ما أدلى بهذه الأقوال لصديقه كان قد فرغ من الإجهاز على صديقته بعد أن ضربها بمطرقة فأصابها . . ولم يلبث المستر « كاسل » أن أظهر للمحكمة مطرقة عثر عليها بين المتخلفات فى شقة المتهم بحى « بارك كرسنت » .

ولقد استقدم الدفاع أيضا فتاة صغيرة فى السابعة عشرة من عمرها

لتشهد أمام المحكمة بأن المتهم « مانسينى » قابلها فى لندن بعد مغادرته لمدينة « برايتون » وأنه قال لها ضمن ما قاله أنه فى حاجة إلى من يقف إلى جواره عندما يمثل أمام القضاء قريباً . . ولما استفسرت منه الفتاة عما يقصد بهذا القول . . أجابها بأن طلب منها فيما إذا ما دعا الأمر أن تشهد بأنها تقابلت معه فى خلال شهر مايو بإحدى الحدائق العامة حيث شاهدت امرأة فى انتظار حضور ثلاثة أشخاص . . وأنها و « مانسينى » تركا هذه المرأة قليلا حتى إذا ما عادا إلى مكان جلوسها وجداها جثة هامدة ؟ .

ناقش الدفاع هذه الشاهدة طويلا فى الأقوال التى أدلت بها . ولقد تمكن المستر « بيركت » فى النهاية من أن ينتزع من الفتاة تصريحاً بأن « مانسينى » إنما قال لها :

— أنى متهم فى جريمة قتل . . ولكنى برىء منها براءة تامة . . وأريد أن تعاونينى على إثبات براءتى .

وكان من أبرز الشهود ضد المتهم بعد ذلك المفتش « دونالدسون » الذى عهد إليه « سكوتلاند يارد » فى كشف معميات وأسرار حوادث الحقائب — وعلى الأخص حادث حقيبتى « برايتون » و « لندن » وحادث الحقيبة التى وجدت بها جثة « ڤيوليت كاى » . . فبعد أن سرد للمحكمة تاريخ حب المتهم كما يعرفها البوليس وأقواله التى أدلى بها عقب القبض

عليه أول مرة فى « برايتون » سأله المستر « بيركت » محامى المتهم :

ـــ هل تعتقد بأن للمتهم يداً فى حادث العثور على الحقيبتين فى محطتى « برايتون » و « كنجركروس » ؟

ـــ أعتقد أنه لا علاقة للمتهم بهذا الحادث ! .

ـــ هل قرأت ما كتبته الصحف عن المتهم عقب العثور على جثة « فيوليت كاى » ؟ وهل تعتقد أن ما كتب عنه صحيح ؟!

وقدم المستر « بيركت » للشاهد أعداداً من مختلف الصحف التى أشارت إلى أن المتهم سبق أن حوكم وحقق معه فى بعض القضايا الخطيرة التى استعمل فيها العنف والقوة للنهب . . فأجاب الشاهد :

ـــ إن كل ما كتبته الصحف فى هذا الشأن غير صحيح . . لقد اتهم « مانسينى » حقاً بالسرقة فى لندن وبرمنجهام . . ولكنها كلها كانت سرقات عادية للملابس وللنقود دون الالتجاء إلى استعمال العنف أو القوة .

وأخيراً مثل أمام المحكمة السير « برنارد سبيلسبرى » كبير الأطباء الشرعيين لوزارة الداخلية البريطانية ليقرر بأنه من الجائز أن تكون القتيلة قد لقت حتفها على أثر ضربها بمطرقة من النوع الذى وجد فى شقة المتهم .

فسأل ممثل الدفاع المستر « بيركت » :

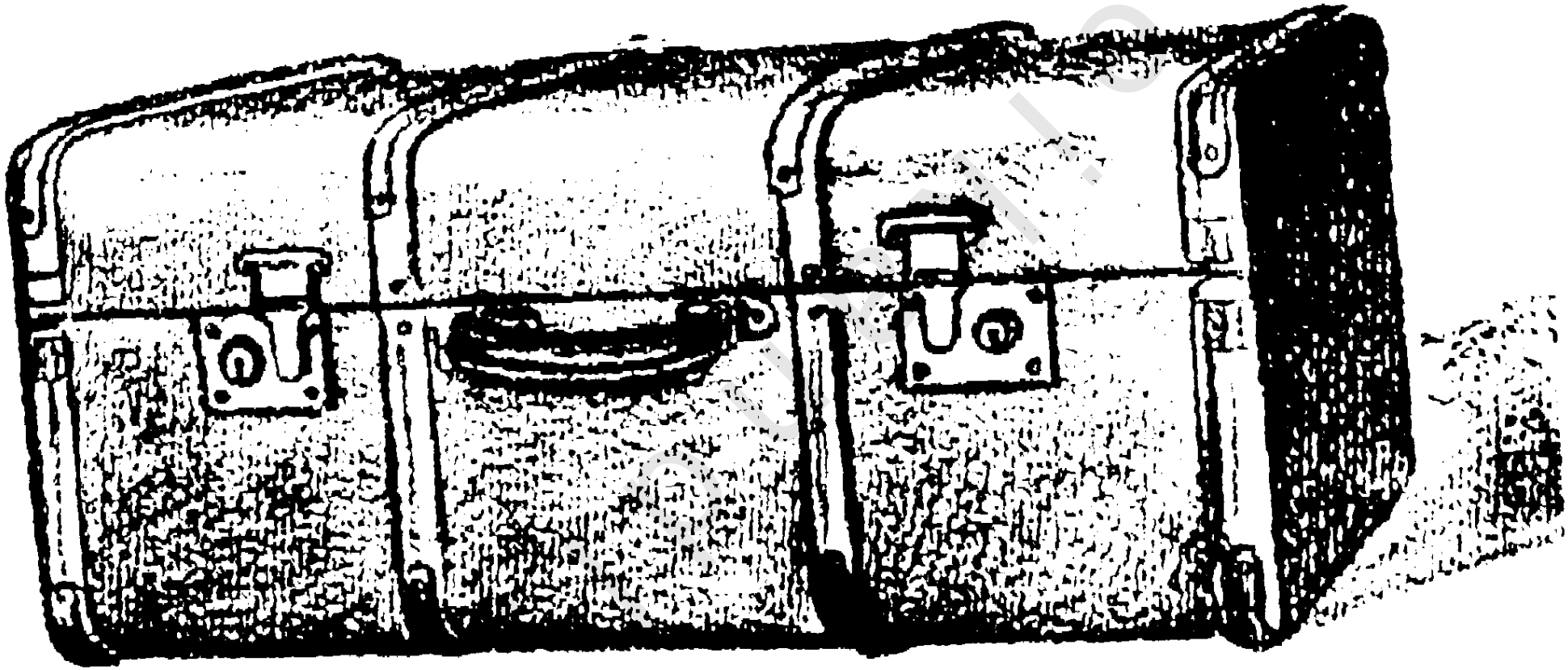

« الحقيبة التى وجدت بها جثة القتيلة »

ـ هل تعتقد أنه من الممكن أن ينسب القتل إلى سبب آخر غير استعمال المطرقة ؟

ـ من الجائز .

ـ إذن . . هل يمكن أن تكون القتيلة قد لاقت حتفها على أثر تناول جرعة كبيرة من مادة مخدرة (كالمورفين) مثلا . . لقد قرر الدكتور « روش لا ينتج » بأنه ليس ببعيد أن يكون سبب الوفاة تناول هذه المادة المخدرة .

ـ إنى أوافق على صحة هذا الرأى . . ولكن ماذا يمكن أن تقول عن الضربات ؟

فأجاب ممثل الدفاع :

ـ ألا يعقل ويقبل أن يصاب شخص فى رأسه من ضربات مطرقة . . ثم يشفى ؟ !

ـ من الجائز . .

ـ فإذا ضرب شخص آخراً فأصابه . . ثم شفى هذا المصاب . . وتناول بعد ذلك وقبل التئام جروحه مادة مخدرة بكثرة (كالمورفين) ، ألا يصح القول بأنه إذا مات فإنما يكون موته نتيجة لتناوله المادة المخدرة . . لا الضرب بالمطرقة ؟ !

ـ نعم . .

ـ أتوافق معى أيها الطبيب .. أنه لا يمكن الجزم بأن القتيلة تناولت مادة (المورفين) بكثرة بمعنى أنه من الجائز أن تكون قد تناولتها فماتت إذ لاحظنا أن التشريح أثبت ذلك ؟

ـ نعم .

وهكذا تمكن المستر « بيركت » أن ينتزع من الشهود أقوالا ساعدته مساعدة فعّالة عندما أخذ فى دفاعه عن المتهم .. فلقد قال فيما قاله :

ـ انى أقدر ما للسير « برنارد سبيلسبرى » من مكانة .. ولكن مهما أوتى طبيب من علم .. ومهما تمكن من فن .. فإن ذلك لا قيمة له بجانب ما يراه القضاة الذين يحكمون فى الدعوى بعد إقناع ودراسة .

لقد كانت القتيلة عاهرة ـ ما فى ذلك شك ـ وكان كثيرون يزورونها فى مسكنها ـ ما فى ذلك شك كذلك ـ فاغتيالها إذن متيسر وسهل لمن يريد ذلك .. وليس فى مقدورى أن أشير إلى اليد التى قتلتها فهذا خارج عن اختصاصى .. بل فوق مقدرتى .. ولكن من الممكن تصور ذلك .. فمتى كان الأمر على هذا الوضع ، فأظن أن مهمتى أصبحت بسيطة .. هذا إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن المستر « كاسل » ممثل الاتهام لم يبين لنا بالمرة الدافع الذى أدى بالمتهم إلى الاجهاز على القتيلة إذا كان قد قارف هذه الجريمة فعلا .. بالرغم من تبسط الاتهام فى سرد أدلته .

وانتهى المستر « بيركت » بأن طلب من المتهم أن يتقدم إلى منصة الشهود لتأدية شهادته . . وقد كان هذا التصرف من المحامى محل دهشة ونظر . . لأنه ما من أحد يضمن ما إذا كانت هذه الشهادة ستؤدى إلى الخير أو إلى الشر . . فقد تفلت كلمة من المتهم فتعجل بتسليم رأسه إلى المشنقة ! .

ومهما يكن من أمر فقد ارتقى « مانسينى » منصة الشهود فى خطى ثابتة متئدة . . ووقف فى المقصورة والأنظار كلها متجهة إليه وقفة الواثق من العدالة . . ومن نفسه . . والحق أن مظهره هنالك كان يبعث على الإشفاق من أمره أولا . . ثم العطف عليه ثانياً . . وفى النهاية تبرئته مما نسب إليه . . فليس بمعقول أن يكون هذا المتهم الذى وقف الموقف الرائع الذى وقفه « مانسينى » مجرماً وقاتلا سفاحاً . . وإن كان سارقاً باعترافه ! .

ولقد روى المتهم وهو فى مقصورة الشهود تاريخ علاقته بالقتيلة واعترف بأنه كان يعيش بعض الوقت عالة عليها . . ولكنه لم يجد سبباً واحداً يدفعه إلى قتلها أو التخلص منها .

ولكنه فاجأ كل من كان فى قاعة المحكمة عندما قال :

— وفى ذات يوم قصدت إلى « ڤيوليت » فى المسكن الذى كنا نعيش فيه . . فوجدت باب حجرتها مفتوحاً . . ولمحت من بعد غلالتها

الحمراء ملقاة أرضاً ، فدهشت . . وأسرعت إلى الداخل فوجدتها ترقد فى فراشها على جنبها الأيسر . . وقد غطت وجهها بيدها اليمنى . . وكأنها قد حزمت كلها . . فقد كانت ركبتاها تكادان تلتصقان بذقنها . . واعتقدت أولا أنها فى سبات نوم عميق فهززتها . . ولكنها لم تجب . . فوضعت يدى إلى مكان القلب فوجدته لا ينبض . . فكدت أصعق أو أجن .

وهنا اعترضه ممثل الاتهام وسأله السؤال الأول الذى يخطر على البال عندئذاك :

ـــ ولماذا لم تستنجد بالبوليس ؟ !

فابتسم « مانسينى » ابتسامة مريرة وأجاب :

ـــ كيف أستنجد بالبوليس . . وأنا الرجل الذى سيوجه إليه الاتهام . . فإنى أعيش معها ، بل عالة عليها . . ولى سوابق معروفة لدى البوليس . . ولا أعرف من القاتل الحقيقى لأوجه إليه الاتهام . . والحق أنى عزمت فى التو على إخفاء الجثة حتى أعثر على هذا القاتل . . وعلى العموم فقد كان هذا التصرف الذى أملاه علىّ عقلى وتفكيرى عندئذاك . . ولقد نفذته . . ولكن شاء القدر أن يقبض علىّ قبل أن أصل إلى بغيتى ! .

ولما سئل عن استعماله للمطرقة . . أو ما الذى يمكن أن يعلله من وجود آثار لها بجثة القتيلة . . أنكر هذا الاستعمال . . أو تعليل وجود

الآثار . . وقال إنه من الجائز أن يكون القاتل الذى قام بالإجهاز عليها استعمل مطرقة لذلك . . ولكنه لم يعثر على مطرقة فى مكان الجريمة . . كما أن تلك التى عثر عليها فى « كريسنت بارك » ليست له . .

وبعد أن انتهى « مانسينى » من أداء شهادته المجازف بها . . نهض المستر « بيركت » ليتمم دفاعه . . واستغرق فى سبيل ذلك ساعة أخرى . . كانت الآذان كلها فى خلالها مرهفة للاستماع . . وبالرغم من ازدحام قاعة المحاكمة تماماً . . فإن الجميع صبروا فى سكون وهدوء . . ولم يلقوا بالا إلا للاستماع إلى الدفاع القوى المتين الذى استخلصه المحامى من براثن الشهود والمتهم نفسه . . والذى انتهى منه إلى طلب الحكم ببراءة موكله دون تردد . . إذ قال :

ـــ إنى لا أريد سوى أن تقولوا عن هذا المتهم بأنه غير مدين . . وبذلك يمكن أن تضعوا حداً فى هذه البلاد للاتهامات التى تكال للناس لمجرد السمعة أو لمجرد تضافر الظروف على الإساءة إلى مراكزهم . . فأنتم قضاة من أبناء هذا الوطن . . ولا ريب أنكم تنشدون العدالة وحدها . . وهى تتلخص فى تبرئة المتهم فى هذه القضية . . بالإعلان فى حزم وقوة بأنه « غير مذنب » .

وبعد ما فرغ المستر « بيركت » من دفاعه . . التفت الجمهور فى صمت إلى المتهم ثم إلى القضاة . . وكأن الجميع قد عقدت على رؤوسهم الطير .

ولم يلبث المحلفون أن غادروا قاعة المحاكمة إلى قاعتهم الخاصة ، حيث ظلوا بها ساعتين وربع الساعة . . وعند ما عادوا إلى أماكنهم أعيد المتهم إلى قفص الاتهام . . وسأل كاتب الجلسة كبير المحلفين . . عن رأيهم فيما إذا كان المتهم الماثل بالقفص مذنباً أم غير مذنب . . فأجاب : غير مذنب .

وهنا فلتت من المتهم صيحة خافتة . . وأخذت شفتاه تتمتمان بصلاة حارة . . وبعد لحظات غادر القفص بريئاً .

وبعد أسابيع عاد اسم « مانسينى » للظهور فى الصحف . . عند ما أعلن أنه رفع قضية تعويض على صحيفة من الصحف التى كانت قد نشرت عنه معلومات خاطئة مضللة عن ماضيه . . وهى المعلومات التى نفاها مفتش البوليس فى أثناء المحاكمة . . وبعد قليل أعلن فى الصحف أيضاً أن « مانسينى » تصالح مع الجريدة المشار إليها نظير مبلغ مائة جنيه فقط يدفع إليه !

أما المفتش « دونالدسون » فقد سئل عقب الحكم ببراءة « مانسينى » عن رأيه فى الحكم . . وقبل أن يجيب على السائلين لمح المستر « باوكر » وكيل أعمال محامى المتهم « المستر بيركت » فاقترب منه وربت على كتفه وقال :

ــ أرجو . . إذا وضعنا بعد ذلك يدنا على القاتل الحقيقى . . أن لا تجعل سيدك المستر « بيركت » يتدخل مرة أخرى ! !

ولكن ذلك لم يمنع المفتش من أن يهنىء المحامى بتوفيقه الذى لا شك فيه، على أن فى تعليقه على الحكم على هذا النحو ما يفهم منه بأن « مانسينى » قد برىء لكفاءة محاميه ومقدرته .. لا لشىء آخر .

وقد يكون ذلك حق .. فالسير « بيركت » هو فخر انجلترا القضائى فى الوقت الحاضر .. كما كان فخرها فى المحاماه يوماً ما ليس ببعيد .

obeikandl.com